

التحليل السلوكي للغة إلياذة هوميروس أنموذجا

الدكتورة: صفية طبني

قسم الآداب و اللغة العربية

كلية الآداب و اللغات

جامعة محمد خيضر - بسكرة

الملخص:

Abstract:

"Iliad behavioral study" designed to stand on the characteristics of this theory and how to apply them to linguistic texts, through the analysis of the language, from the simple example set by Bloomfield {Jack and Jill, and apple}, which is intending to study language scientific study; calls for monitoring various stimuli and responses created by the environment that surrounds us, and dynamic text of the Iliad; assist in the extraction of quite a number of stimuli, which pays a man to respond and will always be what surrounds us.

الإلياذة "دراسة سلوكية "

الغرض منه الوقوف على خصائص هذه النظرية و كيفية تطبيقها على نصوص لغوية، من خلال تحليل اللغة، انطلاقا من المثال البسيط الذي ضربه بلومفيلد {جاك، و جيل، والتفاحة}، وهي تروم دراسة اللغة دراسة علمية؛ تدعو إلى رصد المثيرات والاستجابات المختلفة من خلال خلقها من البيئة التي تحيط بنا، والإلياذة نص ديناميكي؛ يساعد في استخراج عدد لا بأس به من المثيرات، فالمثير هو ما يدفع إنسانا إلى الاستجابة و يكون دائما مما يحيط بنا أخواتها.

مقدمة

تعد دراسة المعنى من المشكلات التي عرقلت معظم الدراسات اللغوية، لذلك نجد الكثير من البنويين يستبعدون المعنى في دراستهم للغة استبعادا كليا، ويهتمون بالشكل الخارجي لها فقط ، ويقرر بلومفيد أن اعتبار المعاني يعد أضعف نقطة في دراسة اللغة ، هذه الأخيرة في رأيه لا تتعدى كونها شكلا من أشكال الحافز فالاستجابة لهذا الحافز، فعن طريق نطق صيغة لغوية يحدث المتكلم سامعه على الاستجابة لموقف و هذا هو الأساس الذي بنى عليه نظريته السلوكية التي ساعدت كثيرا في تطوير منهج البحث التجريبي في اللغة حتى تكون دراستها دراسة علمية مستقلة عن العلوم الأخرى ، و لكي تكون الفائدة كبيرة بالنسبة للباحث في هذا المجال وجب عليه الاطلاع على أغوار هذا العلم وتشعباته؛ أي: على الظروف والملابسات التي تحيط بهذا العلم، إلا أن الدراسة التطبيقية تبقى وحدها القادرة على إيضاح ما يريد الباحث إفهامه فيحصل التكامل بينه وبين القاريء

و بلومفيد من الذين يميلون إلى الاتجاه العقلي، لكن التقاءه أستاذ علم النفس "وايس" سنة 1921 حمله على النظر في أسس مبادئه الألسنية و ذلك انسجاما مع النظرية السلوكية في علم النفس، وعلى الرغم من وجود من سبقه في هذا المجال؛ إلا أن رأيه لاقى اهتماما كبيرا، لأنه يعد "واحدا من أكثر اللغويين تأثيرا في تطور الدراسة العلمية للغة في النصف الأول من هذا القرن ، وهو- أكثر من غيره -المسئول على تقديم المذهب السلوكي إلى علم اللغة " 1

و عموما فقد كان المنهج العلمي السائد في المراحل الأولى للسانيات هو المنهج البنوي ، وكان بلومفيد رائدا من رواد هذا المنهج، فقد لعب دورا مهما في تطوير اللسانيات الأمريكية من خلال مؤلفاته "مدخل إلى علم اللغة " سنة 1914، إلا أن أشهر كتبه هو "اللغة" عام 1933، و الذي وصفه الباحثون بأنه إنجيل علم اللغة الأمريكي ،وقد هيمن على معظم الدراسات اللغوية في السنوات التالية لصدوره، لينتهي به ذلك إلى إنشاء مدرسة لغوية تنتسب إليه في أمريكا مازالت قائمة حتى اليوم .

1- النظرية السلوكية :

قامت هذه النظرية أساسا على التفسير الذي قدمه السلوكيون للمعنى "فالمواقف الاجتماعية التي يعمل ضمنها الإنسان هي بمثابة منبهات تدفعه إلى سلوك معين و ما يصدر عنه من كلام هو استجابة لتلك المنبهات"²، أي إن المعاني عبارة عن منبهات تتبعها استجابة لفظية³

يرى بلومفيلد رائد هذا الاتجاه، إنه يجب اعتبار اللغة أو عملية التكلم اللغوية التي يقوم بها الإنسان سلوكا مثل أي سلوك آخر يمكننا أن نراه مباشرة، إذا فهذه النظرية "تركز على ما يستلزمه استعمال اللغة (في الاتصال) و تعطي اهتماما للجانب الذي يمكن ملاحظته علانية"⁴ فالكلام في البداية يكون غير مسموع، وكما يرى السلوكيون يكون الكلام خفيا (يصبح في هذه الحالة تفكيراً)، لكنه يتحول بعد ذلك إلى كلام مسموع عندما نحتاج إليه، و هنا يصبح من حيث المبدأ سلوكاً مرئياً يمكننا ملاحظته علانية، وقد رفض بلومفيلد كل الظواهر التي لا يمكن أن تخضع للمنهج التجريبي، لأن هذا الأخير يعتمد الملاحظة المباشرة وهو ينظر إلى ظاهر السلوك اللغوي مهماً بذلك دراسة المعنى لأنه في نظره أمر نفسي، فهو "ليس مظهراً خارجياً يمكن النظر فيه بالمنهج الموضوعي المستخدم في العلوم التجريبية"⁵ فتعريف المعنى تعريفاً علمياً أمر صعب للغاية لأنه يتعلق بالمواقف والأحداث الكلامية التي يكون ضمنها الإنسان، والتي تمكنا من معرفة الاستجابة إذا عرفنا الظروف و الملابس التي تحيط بهذه المواقف وهذه الأخيرة غالباً تختلف عن بعضها، وبالتالي فإن المعنى يختلف باختلافها، لأن المعنى هو "ذلك الموقف الذي ينطق فيه الكلام و الاستجابة التي يستدعيها عند السامع"⁶، وبما أنه من الصعوبة معرفة كل ما يحدث في عالم المتكلم من مواقف وأحداث، فبالضرورة يصعب إعطاء تعريف علمي دقيق للمعنى

نستخلص من ذلك أن بلومفيلد يحاول دائماً ربط الأحداث التي يمكن ملاحظتها بالمواقف المباشرة التي تنتج فيها هذه الأحداث مركزاً عليها وتلك المواقف؛ أي: ما يسمى بالمشيرات والاستجابات و هو ما سماه بلومفيلد {الصيغة اللغوية} و الشكل الذي يستعمل عادة لتوضيح العلاقة بين المثير والاستجابة هو :

م _____ س {م تعني مثير - س تعني استجابة}

و بما أن السلوك اللغوي مجموعة من المثيرات والاستجابات المتتالية التي تشكل فيها الكلمة الأولى للحدث الكلامي استجابة لمثير داخلي؛ وهذه الكلمة تستخدم كمثير آخر لكلمة أخرى وهكذا؛ فإن شكل الكلام يكون كآتي :

{م 1 _____ س 1} _____ {م 2 _____ س 2} _____ {م 3 _____ س 3}... الخ

إن هذه النظرية لم تسلم كغيرها من الانتقادات ، إلا أن بلومفيلد يُعتبر نقطة البدء التي انطلق منها كثير من اللغويين من بعده ، وأعماله لا تزال تسهم في بناء كثير من الأعمال اللغوية رغم هجران بعضها .

2 - الإلياذة في ضوء النظرية السلوكية :

تعتبر الإلياذة أعظم عمل ملحمي وصل إلينا من الآداب الغربية ، استطاع ناظمها هوميروس الشاعر اليوناني و بواسطة أسلوب مبسط أن يجعل منها فنا متسلسل الأحداث تجعل القارئ لها يفهم أن موضوع الإلياذة واحد، تدور حوله أحداث مترابطة رغم كثرة الأشخاص ، والملحمة هي أقدم الفنون الأدبية، وهي "من حيث أنها جنس أدبي ، هي قصة بطولة تُحكى شعرا، تحتوي على أفعال عجيبة ؛أي على حوادث خارقة للعادة، وفيها يتجاوز الوصف مع الحوار، وصور الشخصيات و الخطب ولكن الحكاية هي العنصر الذي يسيطر على ما عداه، على أن هذه الحكاية لا تخلو من الاستطرادات وعوارض الأحداث"⁷ و تظهر هذه الصفات جليا في الإلياذة، فالمعارك في هذه الملحمة تعتمد الخوارق و الأساطير دفاعا عن المقدسات التي تتعلق بهذا الشعب اليوناني فهي تحكي أحداث العصر الميسيني المشربة بالأساطير .

تصور الإلياذة جزءا من حرب طروادة - وهي مملكة كانت تمتد من جنوبي آسيا الصغرى إلى الهلسبنتس أو مضيق الدردنيل ، ملكها فريام و قاعدتها إليون- و اليونان التي تشكل بعض الممالك الصغيرة والتي كانت كثيرا ما تتشاجر فيما بينها و قد دامت هذه الحرب عشر سنوات كاملة إختار منها هوميروس أياما قلائل من السنة العاشرة والأخيرة ، والتي حدث فيها حصار إليون ، وبنى عليها منظومته ، وتتكون هذه المنظومة من أربع و عشرين نشيدا ، تدور الإلياذة حول موضوع واحد هو <غضب أخيل > و مجمل القصة أن آغاممنون الملك الإسبارطي أعجب بإحدى سبايا أخيل فانتزعها منه موثرا بها لنفسه، الشيء الذي جعل

أخيل يحتدم غضبا و يتصدى لأغامنون، و كاد أن يببطش به لولا تدخل إلهة الحكمة أثينا، التي أخدمت ذلك النزاع ، فغضب أخيل وانسحب من القتال وبقي بعيدا في عزلة مع نفسه ،افتقد اليونان أخيل بسبب اشتداد الوطم عليهم من طرف الطرواد فلجأ حشد كبير من الإغريق إلى أخيل لاسترضائه بالعودة ، إلا أنه امتنع عن الرجوع معهم، الشيء الذي أدى إلى ضعف قوى اليونانيين ، وفي المقابل فإن قوة الطرواد تزيد يوما بعد يوم، خصوصا ما كان من هكتور زعيم الطرواد وابن فريام، وعندما رأى فطرقل صديق أخيل ما آلت إليه بلاده ، حاول مستعظفا أخيل الرجوع إلى القتال رغم امتناع هذا الأخير ثانية، ولكن بعد جهد جهيد أذن له أخيل بأن يتقلد سلاحه ويحمل على الطرواد بجند المرادة ، وخرج عليهم فطرقل فشتت شملهم ، إلا أنه ارتد قتيلا أمام هكتور، وصل نبأ وفاة فطرقل إلى أخيل فحزن عليه حزنا شديدا تحول فيما بعد إلى غضب على الطرواد، فخرج للأخذ بثأر صديقه، فهاجم الطرواد وبطش بهم ، ثم برز له هكتور فقتله أخيل ونكل به ليكون عبرة لغيره .هذه هي الأحداث التي تناولتها الإلياذة ، فهذا أخيل يتصف بالسجاي التي تجعل من الإنسان مثار إعجاب، لأننا نلاحظ تلك الرفعة في تصرفاته و مشاعره.

إن دراسة هذه الإلياذة هي دراسة للغتها و التي هي مجموعة من العادات الصوتية ،التي تتحكم فيها مثيرات بيئية ؛أي: إن الأحداث الكلامية ما هي إلا سلوك يقوم به الإنسان كما يقوم ببعض الأعمال في حياته اليومية ، وهذا السلوك تكتفه بعض الظروف و الملابس، فإذا فهمنا الموقف الذي يكون فيه المتكلم و المستمع ، فإننا نفهم المعنى، و يتواصل ذلك التأثير في شكل سلسلة من المثيرات والاستجابات مشكلا اللغة ،و تطبيق ذلك على اللغة يعني استخراج تلك المثيرات والاستجابات من اجل فهم الكلام الملفوظ ، يقول هوميروس في مطلع الإلياذة:

ربة الشعر عن أخيل بن فيلا أنشدينا و ارو احتداما و بيلا⁸

فهو يستمد المعونة من ربة الشعر لتثبت فيه روح النظم و الإنشاد ،أثار ذلك ربة الشعر إلا أنها بدل أن تستجيب هي بالغناء؛قامت باستجابة بديلة، فقد أصبحت تنشد على لسانه فهي صاحبة الفضل، وهو ناقل يملي على الملائ ما يتلقنه من فيض روحها، إذا فدعاء الشاعر هنا يمثل المثير، أما الاستجابة فهي إنشاد الشاعر نفسه :

فكرام النفوس ألفت أفولا

ذاك كيد عم الإخاء بلاه

و فرى الطير و الكلاب القيولا⁹

لأذيس انقذن منحدرات

فقد أصبح الشاعر الذي التحمت روحه مع روح الإله يصف ما حدث لاخليل ، ذلك البطل الذي أحاط بالأعداء فكان كيده لهم كيدان ، على الجيش بأن قتلهم و تركهم في العراء تصيب الطير و الكلاب من جثثهم ، و قد جعل الشاعر لآلهة الشعر مكانة كبيرة لذلك خاطبها مجللا إياها بان جعلها هي المنشدة ، إلا أن هذا الخطاب لم يكن اصطناعا، بل كان عفويا لان المتكلم عادة يكيف صيغة خطابه حسب أصناف الذين يخاطبهم فـ " لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة ، و لا الملوك بكلام السوقة ويكون في قواه فضل التصرف في كل طبقة، ولا يدقق المعنى كل التدقيق ولا ينقح الألفاظ كل التنقيح ولا يصفىها كل التصفية و لا يهدبها غاية التهذيب ، ولا يفعل ذلك حتى يصادف حكيمًا، أو فيلسوفا عليما"¹⁰

ألا ترى ذلك في كلام الشاعر فهو في سياق النظم يستنشدنا حيننا بعد حين لنلا تغرب عن ذهن القاريء ، و بذلك نجد إنشاد الشاعر في كل مرة يمثل ذلك المثير، و الذي يستدعي دائما استجابة لفظية، فالمثير هذه المرة عبارة عن سؤال طرحه الشاعر على إلهه : أي رب قضى ؟ منبها إياها إلى الاستجابة لسؤاله فتقول له: إن السبب هو فيبوس إله الشمس ليس غيره، و أكملت حديثها بأن قصت عليه ما كان من فيبوس و عطف زفس عليه، وهي ما كانت لتتم كلامها لو لم تجد استحسانا وانتباها من طرف الشاعر وهذا هو الثواب؛ أي حسن الاستماع

لقد تقدم الكاهن خريسس رافعا صولجان إلهه الذهبي، و خاطب آل الاولمب ،كان خطابه غاية في البلاغة و التأثير، فغرض الكاهن هو استرضاء جيش اليونان في استرجاع فتاته؛ لم يطلب منهم ذلك مباشرة ،بل صاغ خطابه بأساليب جعلت آل الاولمب يتجاوبون معه و يستجيبون له، ففي البداية استعطفهم بالمدح و دعا لهم بالنصر الذي هو غاية أمانهم :

فرعي أترا ' و قوم أخيا يا من خديتم طرا حذاء جميلا

منحتكم آل الاولمب اعتزازا قهر فريام و عودا جليلا¹¹

كان لذلك وقع في أذانهم و استحسانهم لكلامه شجعه على مواصلة الحديث، و كان أثر ذلك واضحا بأن غير نبرة كلامه ، و يوضحه تغير الصيغ اللغوية المستعملة ، فقد استعمل صيغة القسم؛ واستحلفهم بإلههم فيبوس:

فيفيوس، فرع زفس المعلى من سهام الردى يهيل همولا¹²

فبعد استعطفهم و الدعاء لهم، و ثم استحلأفهم بالاهم المَعلى ، طلب منهم ما يريد :
"اقلوا فديتي و ردوا فتاتي " وهو لم يطلب منهم ذلك مباشرة فرما تكون استجابتهم
مختلفة فقد يرفضون طلبه أو يسومونه جفاء كما فعل ذلك أغا ممنون، وطلبه هذا كان
استجابة لدوافع ملحة فهو استجابة لحاجته في الدفاع عن ابنته من جهة، و وجود إنسان
يتوقع أن يحقق له هذه الحاجة من جهة أخرى ، و كل هذه الأسباب والمثيرات أدت إلى
استجابة جيش اليونان، فقد اجمعوا و إجماعهم يدل على أنهم حكموا حكما صوابا، فأغا
ممنون جائر ومتعسف " فجميع الإغريق ضجوا قبولا"

إلا أنهم آثروا حرمة الشيخ فيهم و ارتضاء الفكك منه بديلا¹³

لأن خوفهم من أغا ممنون كان أقوى منهم ، وبالتالي خوفهم منعهم من القصاص منه لألا
يختل نظام الحكم فرضوا به على رأسهم ، فإذا كان خطاب خريس قد اثر في جيوش اليونان
بالإيجاب و استجابوا له كما أراد هو ؛إلا أن استجابة أغا ممنون كانت سلبية فقد رفض طلبه
و أرجعه مخذولا :

غير أن المقال ساء آغا مم نون أترا ، فرده مخذولا¹⁴

عندما يغضب شخص ما فان ذلك يظهر على سلوكه، فجسده يستجيب لذلك
الإحساس بجملة من التغيرات؛كاحمرار الوجه نتيجة ارتفاع ضغط الدم ، و اتساع حدقة العين
، و تصبب العرق كل هذه التغيرات تؤدي إلى تغير السلوك اللغوي، ومنه يتحدد الموقف
الكلامي وهذه الظروف والملابسات تجعلنا نتنبأ بالاستجابة، أو بالكلام الذي سوف ينطقه هذا
الشخص، فهو لن يقول كلاما في الغزل مثلا أو المدح

فأخيل عندما رأى الذي حدث للكاهن خريس غضب، وضاق ذرعا بالذي فعله آغا
ممنون فصب جام غضبه عليه، وما لبث الموقف أن تحول إلى حوار حاد، ومع ما يحتويه
هذا الحوار من نبرة السخرية، فإننا نجده يرقى إلى مستوى يدل على قوة وجد يثيران الانتباه ،
فالكلمات التي ينطقها أخيل تثير آغاممنون و تحته على الكلام، ومن ثم يستمر الصراع بينهما
،وهذه الكلمات تمثل لأخيل استجابات بديلة لمنبهات داخلية يحس بها ،وقد أحسن في اختياره

الأساليب التي تدل كلها على التهويل و التحريض ،لذا جاءت متتالية مما أضفى عليها قوة وتأثيرا في نفسية آغامنون الثائرة بسبب ما رماه به:

فقال أخيل يشزره غضوبا :
 "أيا طمعا تدثر بالشنار
 فهل في القوم بعد فتى خداعا
 تعلمت بأنني لم آت بغضا
 فقط علي لم ييغوا بسوء
 وما نهبوا بأم البهم فثيا
 وذات الخصب زرعني في ديارى¹⁵

و قد استعمل أسلوبا إنشائيا تمثل في الاستفهام والذي خرج إلى معاني أخرى ، وهو سؤال الغرض منه التوبيخ والاحتقار، وقد كان أخيل معتزا بآسسه فتهدد آغامنون بالقول إلى أوطانه حتى إذا اشتد بهم البأس طلبوه، بهذا يشفي غليله من آغامنون، يقول:

سأقلع راجعا ولدي خير
 أعاود موطني و أحل داري
 وأشهد لست تلقى بعد خذلي
 كنوز المال في جرف البحار¹⁶

إن الكلمات التي يتفوه بها أخيل قامت بدور التحريض الصوتي بالنسبة لآغامنون، لذا أثارته وحشته على الكلام فقال:

"إذن وقد رمت انهزاما
 ففر فلست ملتصبا بقاكا
 فلي بسواك غزوة خير رهط
 أجلوني و زفس لي سواكا¹⁷

و كأن ذلك عندما قال له أخيل أنه سيشتد وطء الحرب به إذا قفل عنه ،فأجابه آغامنون بأن قفوله ليس قوة منه وإنما هو انهزام ،فإن ذهب أخيل فإن زفس معهم وآغامنون لا يبالي بغضبه ولا بذهابه لأن ذلك عنده سواء :

فإن تغضب وإن تذهب سواء
 فليس يزعجني هذا وذاكا¹⁸

وكلما طال المجال خشنت اللهجة ،وأدى ذلك إلى اشتداد الفتنة بينهما

نطلق على العوامل التي وجهت رغبة أخيل في الكلام بمثيرات {م1}، أما الاستجابة اللفظية لتلك المثيرات فهي استجابة بديلة {س1}، أما آغامنون فتمثل كلمات أخيل مثيرات بديلة له {م2} وتتمثل العملية الرابعة في كون هذه المثيرات قد عملت استجابة لفظية لدى آغامنون {س2}.... "وبما أن اللغة عبارة عن سلسلة من الأحداث الكلامية التي هي بدورها

عبرة عن سلسلة من المثيرات - الاستجابات ، فإن كل حدث كلامي يمثل بدوره مثيرا ، وكل مثير تتبعه استجابة لفظية ¹⁷ فكما ذكر أخيل بطشه نكّره آغامنون بعلو منزلته ، فيقول أخيل:

علمت بأنني لم آت بغضا
ورمت سببية ما نلت إلا
بأقوام الطراودة الكبار
ببطشي إثر إعلاء الغبار ¹⁹

فيرد عليه آغامنون:

فتاتك منك أعتاض اقتدارا
فيخشى من سواي هنا بوجهي
فتعرف ما مداي وما مداك
مفاخرتي فلا يهوى هواكا ²⁰

و يستمر الكلام بينهما ، تمثل الكلمة الأولى فيه مثيرا للكلمة الثانية و هكذا...

كما نجد صورة أخرى لمثير -استجابة في الإلياذة ، فيما فعله أوديس أحد أبطال اليونان المغاوير ، فقد اندفع وأخذ عصا الملك من آغامنون منفعلا بما فعل هذا الأخير من أمر الجيش بالقفول عن الحرب ، فجرى أوديس وامسك الصولجان ، ثم صاح مخاطبا تلك الجيوش علّه يستطيع استرجاعها إلى ما أراد زفس ، فقال:

أو كيف صاح يليلق كالأنذال تر
عدون خوفا، فازتدع لنصيحتي ²¹

وهو سؤال ليس الغرض منه الإجابة، بقدر ما هو لفت للانتباه ، ثم واصل كلامه أمرا تلك الجيوش و ناصحا لها بالعودة .فيقول مخاطبا قائده:

"فترؤواخذر غيظه، إذا لم تكن
من كان مولى زفس ليس يذله
طرا لديه بين أهل الندوة
بل صانه بكرامة و مودة ²²

ثم يواصل كلامه بين الأمر حيناً و الناهي حيناً آخر، وإنتاج هذه الجمل و التي تعتبر استجابة لبعض المثيرات يستخدم كمثير للجيش الذين استمعوا لرأيه فقد:

تركوا السفائن و الخيام مهرولي
ن بكل جمعهم ولم يتشتت ²³

ثم انظر هنا في هذين البيتين:

فاض هكتور قلبه بحبور
و تدنى لساحة الميدان

و بزرقه آمال ذويه وقفوا له بالوقار و الاذعان²⁴

ففيهما مثير و استجابة ، فهكتور كانت له مكانة كبيرة في قلوب الجميع فإذا أمرهم بإشارة منه بسيفه بالوقوف له(مثير) فإنهم سيستجيبون له مباشرة ،وقد كان ذلك في ساحة القتال عند وقوفه أمام آغامنون، إلا أن الإغريق أمطروه نبالا وحجارة ،وكانت هذه الأسباب دافعا لآغامنون في سلوكه سلوكا معينا فقد:

صاح يستوقف الجموع اغامم نون" مهلا, يا عصابة اليونان

فكأنني بدا لهكتور أمر يرتابه لنا على الاعلان²⁵

فاستجابوا له بان توقفوا عن فعل ذلك، أما هكتور فقد عملت هذه الكلمات التي انتقلت مع الهواء من فم آغامنون إلى أذن هكتور ففسرتها كمثير ، وهذه المثيرات أدت إلى استجابة هكتور بالكلام فقال:

بمقالي يا أيها الجيشان سمعا....."

هاكم ما فaries يلقي عليكم وهو, تدرون أسس هذا الهوان²⁶

وأمرهم أن يلقوا سلاحهم ولا يدافعوا عنه إذا برز إلى القتال مع آغامنون، وأمرهم كذلك أن يبقوا متحدين حتى وإن غلب أحد الرجلين، ثم عملت تلك الاستجابة دور المثير لآغامنون ، وبما أن التفاهم لا يتم على أكمل صورته إلا إذا استجاب الطرف الثاني بالرد فقد صاح مخاطبا جيش الإغريق:

" فلي الآن سمعكم : ليس منكم من يعاني بلوعه ما أعاني؟

بين فaries ذا الخصم و بيني قد دهاكم بفاجعات الزمان

هو باد للوغي و أنا صاد إنما رمت كف حرب عوان²⁷

ثم استطرد في طلبه إبرام عهدة بزعامة فريام الملك، و أن يذبح كبشان للشمس و القمر . إن الاستجابة لا تكون دائما ردا بالكلام الملفوظ، فقد تكون إيماء بالرأس، أو تحريكا لليد أو غيرها من الحركات ،كأن يقوم المستمع برد فعل يبين استحسانه أو استقباحه لذلك الكلام الذي سمعه، وفي هذه الحالة رد جيش الإغريق بالإيجاب ، فحديث آغامنون سرهم، وبالتالي عملوا ما طلبه منهم فقد:

سر هذا الحديث كل فريق رغبة في ادراء ذا الحدثان

إذا تكلم إنسان ما فمعنى ذلك أن هناك سببا ما أخرجه عن سكوته، وهذا السبب عبارة عن محرك أو مثير، يؤدي هذا المثير عادة إلى استجابة لفظية، فهكطور عندما دخل إلى قصر فريام لرؤية زوجته قبل الرحيل إلى الحرب لم يجدها في مكانها ، وعلينا أن نتصور حالته تلك، فهو مضطرب ، وقلق، واضطرابه هذا الذي يمثل استجابة أولى ، دفعه إلى البحث عنها في أرجاء القصر كاستجابة ثانية وهي قيامه بفعل معين ، وبما أنه حدث وأن كان أمامه بعض النسوة ؛ عملت الكلمات استجابة بديلة لما كان يستطيع أن يفعله فقد بادر بسؤالهن:

أين يا هذي النسا قلن لنا أندروماخ مضت أي قبيل ؟²⁹
إلى غير ذلك من الأسئلة المحرصة والتي تدل على حيرته، وقد عملت هذه الأسئلة دور المثير اللغوي بالنسبة للنسوة فقد وصلت ذبذباتها إلى أذنه ففهمها ، وتحولت إلى أصوات تعبيرية فقلن:

" تريد الحقَّ والحقَّ يقال
فأرياناها جرت نحو الحصون
فهي في السرو بليلٍ و بال
جري من داهمه مس الجنون
تصحب المرضع والطفل الحنون³⁰

فقد زادت هذه الكلمات في قلقه ، وعندما التقى بها، وهي خائفة كذلك عليه، ورؤيتها له يمثل لها مثيرا فقد انعكست صورته في ذهنها ، وبالتالي حرصت جهازها العصبي، والذي بدوره نبه تلك الغدد المسؤولة عن إفراز الدموع ، وهذه كلها تمثل أحداثا سابقة للكلام، ثم يأتي الكلام نفسه وهو قولها:

يا شقي البحث ذا البأس الوخيم سوف يلقاك بلجات الجحيم
ولي الارمال. والطفل يتيم

سوف تلقاك جماهير عداك و تلقيك مضاضات الهلاك³¹
ثم طرقت كل باب يطرق لامساك هكطور عن الإلقاء بنفسه إلى التهلكة، مهيجة فيه عواطف الحنان فقالت:

إن تموتنَّ، الأسي يخلد لي و عنا النفس و دمع المقل

لا أبا أسلو به لا أم لي
..... أنت أمي ، وأخي، أنت أبي
أنت بعلي ، أنت كل الإرب

آه ، فارحم و انعطف رفقا علي³²

ثم تواصل حديثها مستجيبة لبعض المثيرات الداخلية، منبهة الطرف الثاني بالرد، فإذا أخذ في التكلم" فإن عضلات البطن تتقلص قبل النطق بأول مقطع صوتي، وهذا التقلص يدفع بالأعضاء إلى الجزء الأسفل من القفص الصدري لتكون سندا قويا لعضلات الصدر ، وعندئذ تتقلص العضلات الواقعة بين الأضلاع بحركات سريعة تدفع الهواء إلى الأعلى عبر الأعضاء المحدثة للأصوات ، و تواصل عضلات البطن تقلصاتها في حركة بطيئة مضبوطة إلى أن ينتهي الإنسان من الجملة الأولى ، فإذا فرغ منها فإن عضلات الشهيق تملأ الصدر ثانية و بسرعة استعدادا للنطق بالجملة الثانية وهكذا..."³³ و هذا الذي حدث لهكطور عندما نطق بالجملة الأولى " ما يشجيك يوليني الشجا" ثم تكررت تلك العملية عدة مرات إلى أن اكتمل كلامه كله ، مذكرا نفسه و إياها بأنه دائما بصدر الفيلق و أنه لا يثنيه الخمول عن واجبه ، وعندما أحس بالضجر و القلق عبر عن ذلك الإحساس بالأصوات:

آه لكن فؤادي و الحجي يبنآني أن صمصامي كليل³⁴

و كان كلما ذكر جملة ما استحضر صورة زوجته من بعده كيف تكون، فيتأوه ثانية :

بيد أن الخطب كل الخطب آه أن تكوني في سبيات العداة³⁵

فهذه كلها استجابات لفظية من طرف هكطور إضافة إلى استجابات حسية أخرى، فأولى هذه الاستجابات هي تلك التي تظهر على الجسد من سيلان للدموع، و هنا المثير هو خوفه على زوجه ،أما الاستجابة الثانية فهي الاضطرابات الداخلية و التي يحس بها هكطور نفسه، وقد عبر الطرفان عما يحسان به بواسطة الألفاظ ، لأن التعبير عن الأحاسيس و تبليغ الأفكار من المتكلم إلى السامع هو وظيفة اللغة فهي وسيلة للتقاهم بين البشر وأداة لا غنى ن عنها للتعامل بها في حياتهم

وقد اختتم هكطور كلامه ذلك بتبنيها إلى تعهد شؤونها فقال:

ولكل عمل، امض، كفى واطلبي أعمال ربات السديل

فلك النسج و قتل المغزل و لنا أعمال السمر الذبل

و أنا الإيقاع بالأبطال لي³⁶

و تواصل الإلياذة في إعطائنا صورا كثيرة و أمثلة جمة عن المثيرات - استجابات ، التي توضح المعنى وتقربه إلى الأذهان ، من خلال أقوال ، وأعمال ، وحركات شخصياتها التي لا تفتأ تتأثر فيظهر ذلك على تصرفاتها، وما يطرأ على ملامحها من تغيرات أحيانا ، و تحاول كل الشخصيات الموجودة استنفاد كل طاقاتها الصوتية بفيض من المفردات و الجمل و التي هي في الحقيقة عبارة عن منبهات مرتبطة بمثيرات أخرى داخلية أو خارجية

و أخيرا نقول أن الإلياذة في معظمها عبارة عن مثير ، فالقاريء الذي يقرأ جملة منها تثيره و تحرضه على مواصلة قراءته ، و ربما تثير فيه بعض الأحاسيس فينفعل بتفاعل الأبطال ويكي ليكاء الناحبات ، وهو لا يمل ، ذلك أن شعر هوميروس هو شعر صادق ، و الشعر الصادق" هو وحده الذي يولد في القاريء استجابة لا تقل في الحرارة و النبل و الصفاء عن تجربة الشاعر نفسه ، أي سيد الكلام لأنه سيد التجربة"³⁷

هوامش و إحالات البحث

- 1- أحمد مختار عمر ، علم الدلالة، عالم الكتب، ط 2 القاهرة 1988 ،ص61
- 2- حنفي بن عيسى، محاضرات في علم النفس اللغوي، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، ط3 {بلا تاريخ} ، ص 180
- 3- محمد بوعمامة ،علم الدلالة بين التراث و علم اللغة الحديث،رسالة دكتوراه جامعة قسنطينة، 1415 هـ - 1995 م ، ص54
- 4- أحمد مختار عمر ،مرجع سابق ، ص 59
- 5- عاطف مذكور ، علم اللغة بين التراث و المعاصرة،دار الثقافة للنشر والتوزيع 1987 ، ص 33
- 6- محمد حسن عبد العزيز، مدخل إلى علم اللغة دار الإنماء للطباعة القاهرة 1983 ، ص319
- 7- غنيمي هلال،الأدب المقارن، دار العودة بيروت ط5، ص 143
- 8- سليمان البستاني،إلياذة هوميروس، دار المشرق بيروت ، ط4، الجزء 1-2 ، ص 146

- 9- نفسه, ص 147
- 10- الجاحظ, البيان و التبيين, تح عبد السلام هارون, دار الجيل بيروت ,الجزء 1, ص92
- 11- الإلياذة , ص 151
- 12- نفسه, ص 151
- 13- نفسه, ص 151
- 14- نفسه, ص 151
- 15- نفسه , ص 152
- 16- نفسه, ص 153
- 17- نفسه , ص 154
- 18- نفسه , ص 154
- 19- نفسه , ص 155
- 20- نفسه, ص155
- 21- نفسه, ص 170
- 22- نفسه, ص 171
- 23- نفسه, ص 174
- 24- نفسه , ص 179
- 25- نفسه , ص, 179
- 26- نفسه , ص 180
- 27- نفسه, ص 180
- 28- نفسه, ص 181
- 29- نفسه, ص 189
- 30- الإلياذة, ص 189
- 31- نفسه, ص 190
- 32- نفسه, ص 191
- 33- حنفي بن عيسى, مرجع سابق, ص 124
- 34- الإلياذة, ص 193

35- نفسه، ص 193

36- نفسه، ص 196

37- محمد عبد المطلب ، البلاغة و الأسلوبية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1984 ،

ص174